من الأدب الرمزي

ورقـــة من السماء

للقصصي الدانمركي أندرسن

بقلم السيد عارف قياسة

في أوج السماء الرفيع ، في الهواء النقي الندي ، طار ملاك بزهرة من رياض الفردوس . ولما لثمها أسقط ورقة منها على الثرى وسط الغابة ، فما لبثت أن اتخذت جذوراً ، ونمت وترعرعت بين الحشائش الأخرى . ولكن أنواع النبات لم تشأ أن تعترف بأنها واحدة منها . . . فكانت تقول : « ما أغرب هذا الغرس ..! »

وكان الحسك والقراص أول من رقص على ثغره الهزء ،

خداعاً منافقاً يصفر وهو يغش الناس ويكذب عليهم ؟ أو لم تحاول يوماً أن تلمح بين كل صفرة وصفرة من هذه ... رابطة ؟

— أوه ! أنا فاهم . أنت تريد أن تقول إن بعض الفنانين تنتابهم هذه الصفرة فتنتاب فنونهم بالوراثة

— آه لو أن لي حق الإشارة بمنح النياشين !

— أشكرك وأحسبني أستطيع بعد ذلك أن أجري في الموازنة بين الفن وهو المخلوق الروحي كما قلت ، وبين الناس وهم المخلوقات المجسدة ، على هذا القياس الذي رسمته لي

— وأحسبك بعد ذلك ستقول معي إن الفن لا يمكن إنتاجه الا مرة واحدة

وعدت إلى صديقي النحات والشاعر وقلت لهما : يا صاحبي إطلبا العوض من الله فأنتما عاجزان عن استرجاع ما ضيعتما ، فلا أنت معيد تمثالك ولا أنت معيد قصيدتك

هنري أحمد فهمي

ولمع في عينه السخر . كان الحسك يقول باحتقار : « من أين أتى هذا ...؟ هذه بذرة ضئيلة من البقول لم نر أسرع منها نمواً ... أمن اللائق ذلك ..؟ وهل يدور في خلدها أنا نسندها حين تلويها كف الهواء ... ؟ »

وجاء الشتاء ، وغمر الثلج محيا البسيطة ، ونفض الغرس السماوي على الثلج بهاء رائعاً ، ورواء ناصعاً ، كأن شعاعاً زاهياً من الشمس رقص تحت حواشيه ، فأنارها بفيض من لألائه ...

وأتى الربيع الضحوك ، وحمل الغرس زهرة ما رأت العين أنصع منها بهجة ، ولا أبرع فتوناً ...

وسمع عنها أستاذ علم النبات الذائع الصيت في البلاد ، فخف إليها وشهادته الرفيعة تشهد بعلمه الجم واطلاعه الرحيب ومعرفته الغزيرة . وتأمل الغرس بإعجاب ، وحلله وذاق من أوراقه

لم يكن ليشبه ما أبصرته عيناه من أعاشيب ؛ وما كان في مقدوره أن يرده إلى فصيلته أو نوعه . فلم يتمالك أخيراً أن قال : « هو غرس مجين . . . هو نبات فذ غريب ؛ ذلك لا يطّرد على قاعدة ، ولا يجرى على قياس » . وردد الحسك والقراص : « ذلك لا يطّرد على قاعدة ، ولا يجرى على قياس » . ورأت الأشجار القارعة الفليظة وسمعت ما كان ، فلم تفه بخير ولا شر ، وذلك عين الحكمة حين ترين الغباوة على الأذهان

. . . ودلفت إلى الغابة فتاة فقيرة ، عفة الضمير ، طاهرة الأذيال ، نقية الفؤاد ، عامرة القلب بالإيمان ، لا تملك من دنياها غير إنجيل عتيق يخيل إليها أن الله يحدثها من خلاله . علمت منه شرور الناس ، وخبثهم السافل ، ولكنها عرفت أيضاً أن علينا — حين نتلقى جورهم وعذابهم ، ونقاسي سخطهم وسخريتهم — أن نذكر يسوع الطاهر ، وأن يكون لنا فيه أسوة حسنة ، وأن نردد معه قوله : « اللهم اغفر لهم ، فإنهم لا يعلمون ما يصنعون »

ووقفت الفتاة أمام الغرس العجيب ، وقد كانت زهرته تضمخ

الهواء بأريج عذب لذيذ يترقرق فى الأرواح ، وتمض فى الشمس كطاقة من النيران الصناعية

وعند ما دغدغ النسيم أوراقها رنت فى أذنها ألحان علوية ، وأنغام سماوية

وظلت الفتاة فى نشوة من اللذة ، وغمرة من الذهول البهيج أمام هذه الأعجوبة . ومالت برأسها نحو الغرس ... لتتأمله عن كثب ... وتنشق أنفاسه الندية العطرة . . .

وشعرت بقلبها ينتعش ويتفتح ... وبذهنها يستضىء بنور الحكمة الإلهية . ومدت يدها ، وقطفت الزهرة ، وفؤادها خافق بالسرور . ولكنها فكرت فى أن فى ذلك بعض السوء ، وأن نضرة الزهرة ستذوى ، وجمالها سيمّحى . فلم تأخذ غير وريقة خضراء وضعتها بين إنجيلها ، حيث ظلت رفافة الطراوة ، بديعة الاخضرار

وتعاقبت الأسابيع ، ووضع الإنجيل والورقة تحت رأس الفتاة فى تابوتها

واستراحت الفتاة فيه بسكون ، وفى قسمات محياها البديع الوديع تلوح سعادة خلاصها من الغبار الأرضى ، ودنوها من الخالق

وفى أثناء ذلك طفق الغرس ينمو ويزهر ، والعصافير العابرة تنحنى أمامه بتجلة واحترام

وهمس الحسك والقراص : « أنظروا جيداً هذا الأجنبى ... وهل يدرون لماذا يسفحون عبرة أعينهم ويريقون ماء أوجههم ؟ أبداً لا نحذو حذوهم الغبى »

حتى دويبات الغابة السمجة ، فقد كانت تبصق أمام الغرس الساقط من أوج السماء .

واقتلع راعى الخنازير ، وهو يضم حزم العوسج ليشعل ناره ، مُعلّيقاً وحسكاً وقُرّاصاً ، وكذلك الغرس الوسيم بجذوره وقال فى نفسه : « كل ذلك لا يصلح لغير طهى الطعام . »

وكان ملك البلاد تغشى روحه كآبة سوداء ، ما كان شىء ليقشع دياجيرها ، ويبدد ظلماتها فانطلق يلهو منهمكاً فى مشاغل شعبه ، ومطالعات آيات العباقرة للمؤلفين ، ثم آثار الكتاب التافهة الهزيلة . وما أجدى ذلك ولا عاد عليه بطائل .

حينذاك أحضر أحكم من فى الكون ، فأجاب أن لديه وسيلة لشفاء الملك وتنفيس كربه ! ذلك أن يأتيه بزهرة سماوية نبتت فى غابة من مملكته . وطفق يعرض أوصافها ، ويسرد خصائصها . وعرف الغرس الذى أثار حب الاطلاع منذ هنيهة .

وقال الراعى فى نفسه : لقد اقتلعته وأيم الحق منذ أمد بعيد ، ولم يبق منه هشيم . وإلى هذا يقود الجهل . »

وخجل الراعى من نفسه واحترس من أن يميط اللثام عما صنعت يداه . واختفى الغرس ، ولم يبق منه غير ورقة ترف على رأس الفتاة الراقدة فى قبرها ، ولكن أحداً لا يعلم بذلك .

وجاء الملك بنفسه إلى الغابة ليتحقق من زوال الغرس . وقال: « هنا إذن قد ترعرع الغرس ، فسيقدس المكان منذ الآن »

وأحاط المكان بسياج من الذهب ، ووضع حراساً عليه .

وكتب أستاذ علم النبات النابه عن صفات الغرس الإلهى بحثاً مطولاً بين فيه كل ما فقد بفقده . وغمر المليك بالذهب كل صفحة من صفحات المؤلف . ولكن المليك مازال محزون القلب ولم يجد لشجنه دواء ، والحراس المساكين كان يلوى الألم بأفئدتهم فى الغابة ...

« حماه ـ سوريا »

عارف قياسه